

تفسير ابن كثير

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُفْرِهِمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ
لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ^ج فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ ^ق وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء ، بمعنى ينتظرون زوال
دولتهم ، وظهور الكفر عليهم ، وذهاب ملتهم (فإن كان لكم فتح من الله) أي : نصر
وتأييد وظفر وغنيمة (قالوا ألم نكن معكم) ؟ أي : يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة (
وإن كان للكافرين نصيب) أي : إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان ، كما وقع يوم
أحد ، فإن الرسل تبلى ثم يكون لها العاقبة (قالوا ألم نستحذ عليكم ونمنعكم من
المؤمنين) ؟ أي : ساعدناكم في الباطن ، وما ألوأناهم خبالا وتخذيلا حتى انتصرتهم عليهم
وقال السدي : (نستحذ عليكم) نغلب عليكم ، كقوله : (استحوذ عليهم الشيطان) [

المجادلة : 19] وهذا أيضا تودد منهم إليهم ، فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء ؛

ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم ، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم ، وقلة إيقانهم . قال الله تعالى

: (فالله يحكم بينكم يوم القيامة) أي : بما يعلمه منكم - أيها المنافقون - من البواطن
الرديئة ، فلا تغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهرا في الحياة الدنيا ، لما له [تعالى
[في ذلك من الحكمة ، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم ، بل هو يوم تبلى فيه السرائر
ويحصل ما في الصدور . وقوله : (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) قال
عبد الرزاق : أنبأنا الثوري ، عن الأعمش ، عن زر ، عن يسيع الكندي قال : جاء رجل
إلى علي بن أبي طالب ، فقال : كيف هذه الآية : (ولن يجعل الله للكافرين على
المؤمنين سبيلا) ؟ فقال علي ، رضي الله عنه : ادنه ادنه ، ثم قال : (فالله يحكم بينكم
يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) وكذا روى ابن جريج عن عطاء
الخراساني ، عن ابن عباس : (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) قال : ذاك
يوم القيامة . وكذا روى السدي عن أبي مالك الأشجعي : يعني يوم القيامة . وقال السدي :
(ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) أي : حجة . ويحتمل أن يكون المراد : (
ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) أي : في الدنيا ، بأن يسلطوا عليهم استيلاء
استئصال بالكلية ، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس ، فإن العاقبة

للمتقين في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة

الدنيا [ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار])

[غافر : 51 ، 52] . وعلى هذا فيكون ردا على المنافقين فيما أملوه وتربصوه وانتظروه من

زوال دولة المؤمنين ، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين ، خوفا على أنفسهم منهم إذا

هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم ، كما قال تعالى : (فترى الذين في قلوبهم مرض

يسارعون فيهم [يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده

فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم [نادمين] ([المائدة : 52] . وقد استدل كثير من

العلماء بهذه الآية الكريمة على أصح قولي العلماء ، وهو المنع من بيع العبد المسلم من

الكافر لما في صحة ابتياعه من التسليط له عليه والإذلال ، ومن قال منهم بالصحة يأمره

بإزالة ملكه عنه في الحال ؛ لقوله تعالى : (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا)